

الصيغة المذهبية للصراع العالمي الحاضر

يعتقد كثير من الناس أن بذور حرب عالمية جديدة تبذر منذ اليوم فيما نشهده من الأحداث والنزاعات الدولية المستمرة ، وأنه ليس من العسير أن نتبين منذ اليوم طرفي النزاع في هذا الصراع العالمي المستقبل ؛ فروسيا السوفيتية بما تلتزمه من مواقف التحدى والمعارضة المستمرة لسياسة الدول الغربية ، وبما تصر عليه من تمكين لسلطان الشيوعية في شرق أوروبا وأواسطها ؛ والولايات المتحدة بما تجرى عليه من معارضة لمشاريع التوسع السوفيتية ، ومقاومة الخطط الشيوعية في غرب أوروبا وجنوبها ، وتدعيم الجهات المناوئة لها . كلتاهما تحدد لنا بوضوح حقيقة العسكريين المتنازعين في الحرب العالمية المستقبلية .

وروسيا السوفيتية ، وأمريكا هما اليوم أعظم دول العالم وأزخرها بالموارد الطبيعية والقوى المادية . وما زال الجيش الأحمر ، الذى كان له أكبر الفضل في سحق ألمانيا الهتلرية ، أعظم قوة عسكرية في العالم . وما زالت أمريكا من جانبها فضلا عن قواها العسكرية الهائلة ، تستأنر بسرا القنبلة الذرية أروع سلاح عرفته الحرب الحديثة . ولكن هذا الصراع الذى تبدو طلائعه اليوم بين هاتين القوتين العظيمتين ، لا تقف طبيعته وعوامله عند تنافس القوى المادية ، ولكنها ترجع إلى أصول وعوامل أخطر وأبعد أنرا ، هي الأصول والعوامل النفسية والأدبية والاجتماعية .

ومتى تحدثنا عن الولايات المتحدة كأحد طرفي هذا النزاع العالمي الخطير ، فيجب ألا ننسى أن بريطانيا العظمى ، تتفق مع الولايات المتحدة تمام الاتفاق في اتجاهاتها وأهدافها السياسية الأوروبية والعالمية ، وفي مشاعرهما ومواقفهما إزاء روسيا السوفيتية . وإذا كانت الولايات المتحدة هي التى تتولى اليوم دون بريطانيا قيادة الجبهة المناوئة لروسيا ، فذلك لأن بريطانيا قد خرجت من الحرب مضعفة الموارد والقوى ، ولم يبق في وسعها أن تضطلع بكثير من أعباء

المقاومة الفعلية لخطط روسيا ، وزحف الشيوعية الدولية . ولكن من الواضح الجلى أن أمريكا وبريطانيا تعملان معا فى هذا الاتجاه بتفاهم تام وتعاون وثيق ، حيثما أسكن ذلك ، كما هو حادث فى اليونان وتركيا وإيران . ولا تتردد روسيا فى أن ترمى أمريكا وبريطانيا بأههما تتبعان سياسة استعمارية جشعة ، وأن بريطانيا ما زالت تتمسك بسياستها الامبراطورية العتيقة ، فى التسلط على طرق البحار واستعباد الشعوب الحرة ومقاومة أية دولة أخرى تحاول التوسع المشروع ، أو افتتاح الأسواق الجديدة ؛ وأن أمريكا التى دخلت الحرب متظاهرة بنصرة الحرية والديموقراطية ، وتأييد حقوق الانسان ، ومصاير الشعوب الحرة ، قد انزلت كذلك إلى ميدان الاستعمار ، والتوسع الاقليمي والاقتصادى ، معتمدة على سياسة الدولار والاستعباد المالى . وترمى الجبهة الأمريكية البريطانية روسيا السوفيتية من جانبها ، بأنها تتبع سياسة التوسع القيصرية القديمة ، وتعمل على استعباد الشعوب السلافية والبلقانية ، وتحاول جاهدة إحباط كل محاولة تبذل لتسوية مشكلات ما بعد الحرب ، والعمل على بث الفوضى والدمار فى أوروبا ، كى تقوض أسس النظم الديموقراطية ، وتطغى الشيوعية المدمرة على الشعوب الأوربية .

والواقع أن هذه التهم المتبادلة بين الفريقين المتنازعين ليست إلا مظاهر لطبيعة المعركة الحقيقية التى تضطرم بينهما ، والتى ترجع كما قلنا إلى عوامل نفسية وأدبية واجتماعية . فالاتحاد السوفيتى يعيش منذ ثلاثين عاماً فى ظل نظم ومبادئ اجتماعية واقتصادية خاصة تصطبغ باللون الشيوعى . وما فتئت الدول الغربية ، التى تعيش فى ظل النظم الفردية الحرة ، وفى مقدمتها بريطانيا وأمريكا ، ترى فى هذه النظم الشيوعية خطراً اجتماعياً على نظمها الحرة ، يجب تجنبه والقضاء عليه . وقد قطعت روسيا البلشفية فى بداية عهدها أعواماً طويلة ، وهى تعيش فى شبه عزلة اقتصادية وسياسية تامة ، تقاطعها الدول الغربية ، وتخشى أن يكون الاتصال بها وسيلة لتسرب الخطر الشيوعى إليها . وكانت روسيا البلشفية يومئذ تدفعها همى البادى الجديدة تذهب فى غلورها إلى حد اتخاذ الثورة العالمية شعاراً لها ، ومحاولة بث بذورها أينما استطاعت بمختلف الوسائل السرية والعلنية . وقد أسفرت محاولات موسكو والدولية الشيوعية التى تحتضنها وتوجهها يومئذ عن وقوع سلسلة من الاضطرابات الشيوعية

الخطيرة في عدة دول أوربية . ولما جنحت موسكو إلى نوع من الاعتدال بعد ذلك بعدة أعوام ، وانضمت إلى عصبة الأمم ، وقع نوع من التقارب المقرون بالحذر بين روسيا البلشفية والدول الغربية . بيد أن الولايات المتحدة الأمريكية لبثت على جفائها وعدم اعترافها بالحكومة البلشفية حتى الحرب العالمية الثانية .

وقد كانت الحرب الكبرى أو الحرب العالمية الأولى صراعاً في سبيل التوسع والنفوذ العالمي واجتناء المغامرات الاستعمارية . ولكنها لم تصطبغ بمثل الصبغة المذهبية العميقة التي اصطبغت بها الحرب العالمية الثانية . ذلك أن المبادئ المركسية التي اتخذتها روسيا البلشفية فيما بعد سنة ١٩١٧ شعاراً لم تكن بالرغم من قيام الأحزاب الاشتراكية والشيوعية في معظم الدول الأوربية قد حققت بعد أي ظفر عملي . فلما انتهت الحرب العالمية الأولى بسحق ألمانيا الأبراطورية ، كانت الثورة البلشفية قد استطاعت من جانبها أن تتم القضاء على القيصرية والبورجوازية الروسية ، وأن تجعل من روسيا أول دولة شيوعية في التاريخ . ومن ذلك الحين تبدأ الحرب المذهبية بين روسيا البلشفية ، والدول الغربية . وكانت أول مرحلة في هذا الصراع محاولة الدول الغربية أن تقضي على الثورة البلشفية في مهدها ، وذلك بأن تدفع العناصر المناوئة والرجعية إلى محاربة الدولة الشيوعية الجديدة . وهكذا توالى حملات « الروس البيض » أو الخوارج على الثورة على روسيا البلشفية تؤيدها وتدعمها الدول الغربية بالمال والسلاح . ولكن روسيا البلشفية استطاعت بعد كفاح دام أربعة أعوام أن تسحق هذه الحملات واحدة بعد أخرى ، وتوطدت دعائم الدولة الجديدة بسرعة ، وأخذت الدول الغربية تسلم بالأمر الواقع وتعمل تباعاً على تنظيم علائقها السياسية والتجارية مع روسيا .

بيد أن النضال مع البلشفية لم يلبث أن اتخذ مظهراً آخر . ذلك أن القوى الرجعية في إيطاليا استطاعت أن تضرب الحركة الشيوعية في الصميم (سنة ١٩٢٢) بعد أن تفاقمت ولاح للعالم أنها على وشك الظفر بأن تفرض سلطانها ونظمها على إيطاليا . وقامت الدولة الفاشستية في إيطاليا تمنع في مبادئ الطغيان وتضمحل للديموقراطية والبلشفية بالأخص أشد العداوة . وكما أن البلشفية كانت ترونو إلى الزحف فيما وراء الحدود الروسية . وتعمل بكل

ما وسعت على تنظيم الحركات والفورات الشيوعية أينما استطاعت ، فكذلك زعمت الفاشستية أن رسالتها لا تنحصر داخل إيطاليا وأنها سوف تعمل على بث مبادئها ومكافحة الشيوعية أينما استطاعت . ونشب من تلك اللحظة بين البلشفية والفاشستية صراع مذهبي مضطرم ، لبث أعواماً ظاهرة النضال الدولى فى أوربا . ولما وثبت الاشتراكية الوطنية الألمانية أو النازية بعد ذلك بأعوام واستولت على مقاليد الحكم فى ألمانيا شجرت على الشيوعية حرباً لا هوادة فيها ، وسحقت الحركة والأحزاب الاشتراكية والشيوعية فى ألمانيا كما سحقت كل نزعة ديمقراطية أو حرة بأشد الوسائل وأشنعها . ولم تكن النازية سوى حركة طغيان مطبق من أعنف وأفظع ما عرف التاريخ . وسرعان ما كشفت النازية عن خصومتها المضطربة للبلشفية وللدولة التى تنضوى تحت لوأها . وسرعان ما تفاهمت النازية والفاشستية على انشاء جبهة « إيديولوجية » موحدة لناوأة البلشفية والديمقراطية كلها ، وكانت الحرب العالمية الاسبانية أول مسرح لهذا الصراع « الايديولوجى » ؛ إذ هرعت إيطاليا الفاشستية وألمانيا النازية لمعاونة قوات فرانكو الرجعية ، وهرعت روسيا البلشفية لمعاونة القوات الجمهورية الاشتراكية ، ومنيت الاشتراكية والديمقراطية فى أسبانيا بأول هزيمة عملية فانهارت الجمهورية الاسبانية ، وقامت حكومة فرانكو العسكرية الفاشستية حتى يومنا .

وفى الأعوام الثلاثة التى سبقت الحرب العالمية الثانية لم يك ثمة شك فى خطورة اللون المثالى « الايديولوجى » الذى تصطبغ به المنازعات الدولية . ولم تأت سنة ١٩٣٧ حتى تألف محور رومه - برلين ، وانقسمت أوربا بصورة جلية إلى معسكرين خصيمين هما معسكر الفاشستية المكون من ألمانيا وإيطاليا والدول التى تعطف عليهما ، ومعسكر الديمقراطية المكون من بريطانيا العظمى وفرنسا وباقى الدول الغربية . وكانت روسيا يومئذ بمعزل عن المعسكرين ، وكان يظن مع ذلك أنها بالرغم من صبغتها الشيوعية أكثر عطفاً على المعسكر الديمقراطى وأقرب إلى التفاهم معه . ومن ثم فإن تفاهمها قبل نشوب الحرب مع ألمانيا الهتلرية ألد خصومها وأخطرهم كان له وقع الصاعقة فى المعسكر الديمقراطى وكان مفاجأة مذهشة للعالم كله . بيد أنها لم تلبث أن تكشفت على حقيقتها :

وبالرغم من أن الحرب العالمية الثانية بدأت فى الظاهر لأسباب وبواعث إقليمية بيد أنه لم يك شك منذ البداية فى لونها المذهبي العميق . ولم يخف هتلر منذ الساعة الأولى أن يشهر الحرب على الديمقراطية والنظم الرأسمالية المستقلة ، وهى التى ترتب على قيامها حصار ألمانيا الاقتصادية وحرمانها من ثمار كدها وخفض مستوى العيش فيها . كذلك لم يخف هتلر وسادة الحرب الجرمانيين أنهم يعملون على فرض سيادة الجنس الجرماني (الأرى) وتمكينه من الرياسة التى يؤهله لها تفوقه على سائر الأجناس الأخرى . وما فتئت بريطانيا العظمى من جانبها تؤكد أنها تحارب لقاومة الطغيان الفاشستى وإنقاذ النظم الحرة والشعوب الديمقراطية مما يهددها من ضروب الذلة والاستعباد السياسى والاقتصادى الذى تحاول الفاشستية فرضه عليها .

ولما كشف هتلر القناع وغزا روسيا السوفيتية فى صيف سنة ١٩٤١ عاد يردد نعمته العديمة فى وجوب سحق البلشفية وإنقاذ العالم من خطرها المدمر . ومع أن الغزو الجرماني لروسيا يرجع إلى بواعث كثيرة أخرى فانه لم يكن ثمة شك فى اللون المذهبي « الايديولوجى » العميق الذى كان يطبع الصراع بين البلشفية والنازية . وهنا وقع تحول جوهرى فى سير هذا النزاع ؛ فان بريطانيا زعيمة الجبهة الديمقراطيةه يومئذ لم تتردد فى الوقوف إلى جانب روسيا إزاء خطر النازية المشترك . وفى نهاية هذا العام أيضاً (١٩٤١) وقفت أمريكا إلى جانب روسيا البلشفية ، وذلك حينما نزلت اليابان إلى الميدان لتحارب أمريكا وبريطانيا وتؤيد بذلك مجهود النازية الحربى . وانتظم بذلك الثلاث « الديمقراطى » العتيد ضد النازية والفاشستية ، وأسبغت الصفة الديمقراطية على روسيا البلشفية ، وذلك بالرغم من كل ما أسبغ من قبل على النظام البلشفى ووسائله من النعوت المفزعة والغايات المدمرة ، واستحل كل اعتبار وتنوسى كل خلاف لتوطيد المجهود المشترك ضد النازية والفاشستية . وألفت الصفة المذهبية أو الايديولوجية للحرب العالمية الثانية أقوى تأييد وأصدقه فى ميثاق الأطلنطيق الذى وقعته الدول الثلاث حتى قبل أن تدخل أمريكا الحرب . ففى هذا الميثاق تؤكد الدول الديمقراطية الثلاث أنها تعمل لسحق الاستبداد النازى كى تستطيع الأمم أن تعيش فى دائرة حدودها بسلام ويستطيع الناس فى جميع أنحاء العالم أن يعيشوا بمأمن من الشقاء والخوف . وألفت هذه

« الايديولوجية » صداها القوى قبل ذلك في ميثاق الحريات الأربع الذى أعلنه الرئيس روزفلت فى رسالته إلى الكونغرس ، وهى حرية القتل والرأى وحرية العبادة والتحرر من الخوف والتحرر من الفقر ، وكلها مما تنكره النازية والفاشستية أشد الانكار .

وكان القضاء على النازية أحد الأسس الجوهرية التى وضعت منذ مؤتمر القرم لتطبيقه على ألمانيا المهزومة . ولما تم سحق الجيوش الهتلرية وسلمت ألمانيا لأعدائها الظافرين بلا قيد ولا شرط ، وضع الحلفاء نصب أعينهم مطاردة النازية والعمل على سحقها بكل وسيلة . واعتبرت النازية جريمة واعتبر معتقوها ودعاتها مجرمون يعقلون ويحاكون . وما تزال محاكم الحلفاء العسكرية فى مناطق ألمانيا المحتلة مشغولة بمحاكمة النازيين واصدار أقصى الأحكام عليهم . وقد حلت جميع التشكيلات النازية وطوردت بشدة ، وشرذ النازيون أو من تعلق بهم رغبة النازية من أعمالهم ووظائفهم . وهكذا غدت ألمانيا النازية نقمة على كل من اعتنقها أو عمل فى ظلها . وعمل الحلفاء فى نفس الوقت على إحياء العناصر الاشتراكية والديمقراطية القديمة التى قضى عليها هتلر لتكون نواة لحياء الفكرة الديمقراطية فى ألمانيا وإنشاء ألمانيا الديمقراطية المستقبلية .

على أن هذا الصراع المذهبى الذى طبع الحرب العالمية الثانية لم ينته بتحطيم الجبهة الفاشستية وظفر الجبهة الديمقراطية ، ولكنه ينشب اليوم بين حلفاء الأمم بصورة واضحة ، وتنشق « الجبهة الديمقراطية » القديمة على نفسها بعد أن وحد بينها الخطر المشترك مدى حين . والواقع أن التحالف بين روسيا البلشفية والدول الغربية خلال الحرب لم يكن أسراً طبيعياً ، ولكنه كان نتيجة محتومة لتفوق الجبهة الفاشستية خلال الحرب والخطر المشترك الذى يهدد البلشفية والديمقراطية على السواء . ولم تنس روسيا البلشفية قط ما يفرق بينها وبين حلفائها الديمقراطيين من الفوارق المذهبية الجوهرية . ولم تنس بريطانيا وأمريكا أنهما تعملان مع المارد البلشفى الذى طالما توجستا شرا من خططه ومبادئه الثورية وطالما رغبتا فى تحطيمه وسحقه .

ومن ثم فانه ما كاد لواء النصر يعقد « للأمم المتحدة » ويتم القضاء على ألمانيا النازية حتى ظهرت بوادر الخلاف واضحة بين حلفاء الأمم ، وأخذت

روسيا السوفيتية تترد سراعاً إلى حظيرتها القديمة وتجري في سياستها الخارجية على طريقها الخاصة وتحصر على تحقيق أهدافها القومية والدولية القديمة ، وتحركت المنافسات القديمة بين الفريقين في سبيل التوسع السياسى والاقتصادى ، وظهر هذا الخلاف في أشد صورة في سائر الاجتماعات والمؤتمرات المشتركة التى عقدت في العامين الأخيرين بين روسيا السوفيتية وحلفائها بالأسس : في مؤتمر بوتسدام وفي مؤتمر موسكو وفي اجتماعات مجلس وزراء الخارجية وغيرها وكذلك في هيئة الأمم المتحدة التى غدت مسرحاً لنضال مضطرم مستمر بين بين روسيا والدول الغربية .

ويتخذ هذا الصراع المذهبي بين روسيا البلشيفية والولايات المتحدة صوراً عملية لا شك في خطورتها . فالاعتمادات الضخمة التى أقرها الكونجرس (البرلمان الأمريكى) منذ بضعة أشهر لمساعدة اليونان وتركيا ، والاعتمادات التى طلب الرئيس ترومان اقرارها أخيراً لمساعدة فرنسا وإيطاليا والنمسا ، والبرنامج الشامل الذى وضعته أمريكا لتعمير دول أوروبا الغربية وإنهاضها وهو المعروف ببرنامج مارشال ، تنبئ كلها بما تتطوى عليه من تضحيات ضخمة عن عزم أمريكا الراسخ على العمل بكل ما وسعت لتقوية الحواجز الأوربية ضد الزحف الشيوعى ، وحماية الدول التى تتعرض أكثر من غيرها للضغط الشيوعى ومطامع السياسة البلشيفية ، ومعاونة الدول الغربية على مكافحة الأزمات الاقتصادية والاجتماعية التى تهددها بالدمار والفوضى لتكون أكثر مقدرة وجرأة على مقاومة الخطر الشيوعى الذى يلوح اليوم منذراً في أفق الكثير منها ولا سيما إيطاليا والنمسا وفرنسا .

ولم تحجم روسيا التى ترى أن السياسة الأمريكية الرأسمالية ترمى إلى تطويقها والعمل على تقويض نظمها وثورتها عن الرد ؛ فقد عملت على إحياء الكومنترن أو الدولية الشيوعية التى ألفت خلال الحرب لتعمل على تقوية الجبهة الشيوعية في أوروبا بوسائلها الخاصة ، وجعلت مقرها في بلغراد على مشارف البلقان وإيطاليا . وقد ظهر أثر نشاط الدولية الجديدة واضحاً في القلاقل الشيوعية التى قامت أخيراً في إيطاليا وفرنسا ، وفي التقريب بين دول البلقان وشرق أوروبا الخاضعة لنفوذ روسيا ، وارتباط رومانيا ويوجوسلافيا وبلغاريا وألبانيا ثم الحجر ورومانيا بمعاهدات عسكرية واقتصادية تجعل منها كتلة موحدة تحت

إشراف موسكو وتوجيهها . وتجدد روسيا فى الوقت نفسه فى تقصى أسرار القنبلة الذرية ، ولعلها قد ظفرت بها إذا صدقتا تصريحات الرفيق مولوتوف . وما زال مستقبل ألمانيا محوراً للصراع بين روسيا وبريطانيا وأمريكا ؛ إذ تريد الدولتان الغربيتان أن يجعلتا من ألمانيا حاجزاً ضد البلشفية ، وتريد روسيا أن تظفر من الإشراف على مصاير ألمانيا الاقتصادية بأكبر قسط ، وتريد أن تحصل من موارد ألمانيا على أعظم نصيب ، وتعارضها أمريكا وبريطانيا فى هذ السياسة . ويبدو الاصطدام الروسى الأمريكى أوضح وأشد حيثما تعلق الأمر بمصالح استراتيجية أو بترولية حسبما يحدث فى شرق البحر الأبيض المتوسط وفى كوريا والصين وإيران .

وهكذا تضطرم المعركة بين الجبهتين الروسية والأمريكية البريطانية سافرة يبدو لونها المذهبي واضحاً لا خفاء فيه ، فهى معركة البلشفية والرأسمالية ، وهى فوق ذلك معركة التوسع والنفوذ العالمى . وأخطر ما فيها نزعتها المذهبية التى ما فتئت منذ ثلاثين عاماً تهدد سلام العالم والتى كانت أكبر عامل فى اضرام نار الحرب العالمية الثانية . فإذا لم ينجح الفريقان المتنازعان إلى نوع من التهادن والتفاهم ، وإذا استمر هذا الصراع بينهما على اضطرامه ، فانه سوف يفضى بلا ريب إلى نتيجته الطبيعية ، وهى تسميم الأفق الدولى والتهديد المنظم لقيام حرب عالمية جديدة ، يحاول كل من الفريقين فيها أن يقضى على الآخر وعلى مبادئه ونظمه بطريقة حاسمة . وقد تطول نذر هذا الانفجار الجديد أعواماً ، ولكنه سوف يقع فى النهاية إذا استمر كل فريق فى إصراره على موقفه وغاياته ومثله .

محمد عبد الله عنانه